ومعنى هذا أيضا أن اللقاء فى لحظة الإبداع إنما يقع بين كل المقومات ، فيما عدا الناقد الذى يتأخر دوره بالضرورة ، وتبدو المسألة فى حاجة إلى قدر من الانضباط يفرضه المبدع أيضا على نفسه حتى لا يختل توازن الأشياء بين يديه ، فلا هو يضحى بذاته تماما ، ولاهو يسقط الواقع من حسابه أمام تضخم تلك الذات وتوهُّجها على النهج الذى سنه بعض الرومانسيين ، وتمادوا فيه فى فترة المد الرومانسى . ومعنى ذلك أن المسألة تحتاج إلى الكثير من كبح جماح النفس حتى لا يأخذها الشطط أو الخيلاء ، مما قد ينتهى بها إلى جنون العظمة على حد تعبير (أرفينج بابيت) فى قوله « فأنت ما إن تمحو المعيار اللاشخصى الرفيع للقاعدة الأخلاقية التى تضع القيود على تلهف المبدع على التعبير عن نفسه ، وقد تعذر عليك أن ترى المعيار الذى يتبقى من فضائل الإنسان غير انتشائه بنفسه وهو معيار لا يكاد يبلغ الحقيقة »[1] .

بل إن « بابيت» يوسع من دائرة القضية حين يرى خطرها يمتد ليتجاوز المستوى الفردى إلى مستوى الأمة - ككل - حين يراها وقد أصيبت برمتها بتلك الحالة من التهيج ، واحترقت بنار الإعراب عن الذات ، وبدلا من الخضوع لمقاييس أخلاقية أصيلة تجد استيلاءً جماعياً للمزاجية والحساسية ، عندئذ تكاد تكون الحالة (ميئوس منها) ، وإن ظل واضحا - هنا - أن الناقد إنما يحاول الاعتداد بالمقاييس الأخلاقية بما ينفى إمكانية إسقاطها من الاعتبار بشكل عام ، خاصة فى المجتمعات التى تعرف العقائد والديانات ، فإذا ما أخذنا فى الاعتبار بما قاله ت.س. إليوت حين طالب بضرورة إجراء محاكمات أخلاقية للأعمال الأدبية وفق القانون الأخلاقى الذى يرتضيه كل جيل سواء أكانت تحيا بموجب ذلك القانون أم لم تكن[2] تبين لنا أن إليوت يرجع إصدار الحكم إلى كل جيل على حدة ، وكأنه يسلم - بذلك - بصلاحية كل الأجيال للاختيار أو الالتزام ، أو الانفصام ، أو الاغتراب أو غير ذلك كله ، بدليل أن شيئا ما قد يبدو مألوفا فى جيل ما لكنه قد يثير الاشمئزاز فى جيل آخر ، ولكن يظل مطلوبا البحث فى مساق هذا التوازن بين القيم والجيل الذى يتلقاها ويتبناها ، خاصة إذا وضع فى الاعتبار أيضا أن الانتشار المؤكد للعمل الفنى تتسع دائرته على مستوى المتلقين نقادا كانوا أو جماهير قراء ، فإذا كان الناقد يتأثر حقيقة بما يقرأ فما بالنا بجمهور العامة ،

(١) خمسة مداخل الى النقد الأدبى ٥٨ ومابعدها .

(٢) مقالة إليوت (الدين والأدب) خمسة مداخل إلى النقد الأدبى ٦١ ومابعدها .